يتيمٌ بين ظهرانَيْ أهله: المجتمع العربيّ في إسرائيل والمحيط العربيّ في المشرق

يسري خيزران

المقدّمة

تأتي هذه الورقة لتقدّم قراءة تاريخيّة بشأن علاقة المجتمع العربيّ بالمحيط، وذلك من خلال استطلاع مدى تأثّر التوجُّهات السياسيّة والأيديولوجيّة في المجتمع العربيّ بما يحدث في المحيط. ومن خلال تحليل أبعاد تأثُّر المجتمع العربيّ بالمحيط، سنحاول طرح تصوُّر لكيفيّة استعانة المجتمع العربيّ بالمحيط، على الرغم من حالة التفكّك والانهيار الحاصلة بفعل "الربيع العربيّ" في الحفاظ على وجوده وتدعيم كيانه، ولربّما (مستقبَلًا) تطوير الروابط الثقافيّة والقوميّة التي تجمع المجتمع العربيّ مع محيطه واستثمارها لتصبح مَنفذًا للخروج من حالة العزلة المفروضة على المجتمع العربيّ على كلّ المستويات. تقوم هذه الورقة على القراءة القائلة إنّ المحيط العربيّ حاضر بقوّة في تحديد سلوكيّات وتوجّهات المجتمع العربيّ تجاه ذاته، وتجاه الدولة العبريّة، منذ تأسيس الدولة حتّى أيّامنا هذه. وبالتالي، من خلال طرح قراءة تاريخيّة لهذا التداخل، يمكن الخلوص إلى بعض التوصيات والمقترحات التي من شأنها خلق توجُّهات سياسيّة جديدة في مجتمعنا.

وُضعت العديد من الدراسات عن المجتمع العربيّ في إسرائيل. يتناول الجزء الأكبر من هذه الدراسات التغيّرات الداخليّة في المجتمع العربيّ، إلى جانب التغيّرات في العلاقة بين الدولة والأغلبيّة اليهوديّة من جهة، والسكّان العرب من جهة أخرى. صحيح أنّ هناك نقاشًا حيويًا يتناول مسألة تأثير الحيّز العربيّ الإقليميّ في

الأقلّيّة العربيّة، لكن ينقصنا هنا إطار تحليليّ تاريخيّ يسمح لنا بربط التطوّرات السياسيّة في العالم العربيّ بهُويّة وسلوكيّات العرب الفلسطينيّين مواطني إسرائيل. نشير في هذا الصدد إلى أنّ العالَم السياسيّ للمواطنين العرب غير محدود في البلدات التي يعيشون فيها أو ضمن حدود الدولة؛ بل إنّهم يتأثّرون بالتطوّرات التي تطرأ على العالم العربيّ الذي يُعتبر جزءًا من "الأنا الأوسع" لديهم.[1] خلافًا للمقاربة التقليديّة التي تميّز الكثير من الدراسات عن المجتمع العربيّ في إسرائيل، والتي تركّز على علاقات الأقلّيّة العربيّة بالدولة فقط، تأتي هذه الدراسة لتقدّم وجهة نظر جديدة ولتفحص مسألة العلاقة بين العالم العربيّ والمجتمع العربيّ من منظور تاريخيّ، من خلال التركيز على التطوّرات السياسيّة الحاصلة في المحيط العربيّ منذ الحرب العربيّة – الإسرائيليّة الأولى حتّى اندلاع انتفاضاتِ ما عُرِفَ بثورات "الربيع العربيّ".[2]

توطئة

الصراع بين الحركة الوطنيّة الفلسطينيّة، والمشروع الاستيطانيّ الذي جسّدته الحركة الصهيونيّة، أفضى إلى نكبة الشعب الفلسطينيّ، الذي تحوّل بفعل الحرب من أغلبيّة إلى أقلّيّة قوميّة، بعد أن جرى طرد وتهجير ونزوح زهاء 800 ألف فلسطينيّ، وتحويلهم إلى لاجئين خارج وطنهم الأصل. وخلال هذه الحرب، هُدِمت وهُجِّرت 531 قرية وتجمّعًا سكّانيًا، فضلًا عن إفراغ 11 تجمّعًا مدنيًا خلال النكبة، ممّا أدّى إلى القضاء على المدينة الفلسطينيّة وهدم المراكز المدينيّة التي كانت تعجّ بالنُّخَب والحراك الثقافيّ الاقتصاديّ.

علاوة على ذلك، أدّت نكبة الشعب الفلسطينيّ –في ما أدّت– إلى عزل الفلسطينيّين الذين بقوا في وطنهم عن محيطهم العربيّ وفضائهم الثقافيّ، وكذلك اعتبرت إسرائيل التواصل بين الفلسطينيّين والمحيط العربيّ خطرًا داهمًا من شأنه أن يهدّد وجود إسرائيل. ومن المهمّ أن نذكر أنّه بفعل النكبة باتت الأقلّيّة العربيّة في البلاد بدون النُّخَب السياسيّة والفكريّة والثقافيّة والاقتصاديّة، ولم يبقَ سوى أقلّيّة ريفيّة تعيش في تجمُّعات سكّانيّة قرويّة في الجليل والمثلّث والنقب. وقد جرى وصف حالة الفلسطينيّين الذين تحوّلوا إلى مواطنين في دولة إسرائيل بالشكل الذي بقوا عليه على أنّهم مثل "الجسد دون الرأس"، وذلك نتيجة أيضًا لإعاقة مسارات التطوّر والحداثة، وهدم المراكز المدينيّة ونزوح القيادات السياسيّة والنخبة الثقافيّة. لم تتوقّف النكبة عند هذا الحدّ فقط، بل إنّها حدّت من إمكانيّات التعليم العالي في

(1). روني شاكيد، **على الجدار: الفلسطينيّون في إسرائيل**. القدس: كرمل، 2012، ص 49.
(2). للاستزادة بشأن ثورات "الربيع العربيّ" راجع: فوّاز جرجس (محرّر) **الشرق الأوسط الجديد: الاحتجاج والثورة والفوضى في الوطن العربيّ**. بيروت: مركز دراسات الوحدة العربيّة، 2016.

العواصم العربيّة، التي كانت رائجة قُبَيْل النكبة، وذلك بسبب الصراع بين الدول العربيّة والحركة الوطنيّة الفلسطينيّة من جهة وإسرائيل من جهة الأخرى، وقد انخفض عدد الطلّاب الفلسطينيّين في الجامعات خارج البلاد من زهاء الـ 1000 طالب وطالبة إلى أفراد.

بقاء الفلسطينيّين في إسرائيل لم يَرُقْ لأوساط سياسيّة عديدة فيها، وعلى رأسهم مؤسّس الدولة ورئيس حكومتها الأوّل، داڤيد بن چوريون، الذي أراد –على ما يبدو– تهجير البقيّة الباقية من الشعب الفلسطينيّ والحفاظ على دولة يهوديّة حصريّة" نقيّة" من غير اليهود، وعلى هذا الأساس اعتبر بن چوريون العرب طابورًا خامسًا (أعداء)، وتعامل معهم وَفق المنظار الأمنيّ وذلك بفرض الحكم العسكريّ على التجمّعات السكّانيّة العربيّة.[3]

عاش الفلسطينيّون بُعَيْد النكبة حالة من التناقضات الكبيرة صاغت وعيهم وأثّرت على سلوكهم سياسيًّا واجتماعيًّا. وقد برزت حالة الاغتراب والحصار بفعل عزلهم عن محيطهم العربيّ وانقطاعهم عن موروثهم الحضاريّ والثقافيّ من جهة، وبفعل سياسات الحكم العسكريّ التي عملت على نحوٍ منهجيّ على حصرهم في مَعازل قرويّة، وقيّدت حركتهم، وحاولت شلّ حراكهم السياسيّ والاحتجاجيّ عبْر ملاحقة وحظر التنظيمات السياسيّة (كحركة الأرض في العام 1964، والقائمة الاشتراكيّة في العام 1965). ظهرت في تلك الفترة بواعث متناقضة للسلوك السياسيّ للأقلّيّة العربيّة الفلسطينيّة في إسرائيل، وبرزت بروزًا أكبر مع صعود نجم الرئيس المصريّ جمال عبد الناصر الذي قاد حركة التحرّر الوطنيّ العربيّ ومشروع الوحدة العربيّة. عاش الفلسطينيّون حالة من الترقّب، إلى جانب نفسيّة الهزيمة التي سيطرت على سلوكهم السياسيّ؛ فقد جرت العادة أن يتحلّقوا للاستماع بشغف إلى خطابات الرئيس المصريّ الذي بعث فيهم الأمل من جديد، ومن جهة أخرى أذعنوا للحكم العسكريّ وخرجوا بجموعهم إلى التصويت للأحزاب الصهيونيّة والقوائم التابعة للحزب الحاكم "مپاي".[4]

تطوّر السكّان العرب الذين بقوا داخل حدود دولة إسرائيل بعد حرب عام 1948 تطوّرًا غير طبيعيّ، لكونهم جزءًا من الأمّة العربيّة والشعب الفلسطينيّ قوميًّا وثقافيًّا ودينيًّا. في الوقت نفسه، هم جزء من مواطني دولة إسرائيل التي بُنيت على أنقاض الشعب الفلسطينيّ، وما زالت في صراع دمويّ مع الحركة الوطنيّة

(3). للاستزادة بشأن فترة الحكم العسكريّ، راجع: يائير بويمل، **ظلّ أزرق – أبيض: سياسة المؤسّسة الإسرائيليّة ونشاطاتها وسط المواطنين العرب في إسرائيل: السنوات المبلورة 1958-1968**. حيفا: پرديس للنشر، 2007.

(4). للاستزادة بشأن مسألة تصويت المواطنين العرب للأحزاب الصهيونيّة خلال فترة الحكم العسكريّ، راجع: مصطفى كبها، **الأقلّيّة العربيّة الفلسطينيّة في إسرائيل في ظلّ الحكم العسكريّ**. حيفا: مركز مدى الكرمل، 2014.

الفلسطينيّة والدول العربيّة. يُبرز هذا الوضع الأزمة والمعيقات والصعوبات التي تواجه العرب الفلسطينيّين في التكيّف والاندماج داخل دولة إسرائيل التي تعرّف نفسها بأنّها دولة يهوديّة. يتجلّى الواقع السياسيّ المشتقّ من الطابع الصهيونيّ واليهوديّ للدولة في غياب المساواة بين اليهود والعرب على جميع مستويات الحياة، لوجود آليّات توزيع تصبّ في مصلحة الأغلبيّة اليهوديّة وتميِّز ضدّ المواطنين العرب. نتيجة لذلك، يستمرّ إقصاء وتهميش المواطنين العرب، ويواصلون حياتهم على هوامش المجتمع الإسرائيليّ، غير قادرين على تحقيق مواطَنتهم بالكامل بسبب الجوانب الحصريّة للدولة. في الوقت نفسه، عزّزت الدولة سياسة إزالة التعريب وإزالة الطابع الفلسطينيّ، التي تمسّ بمكانة السكّان العرب وهُويّتهم الوطنيّة والثقافيّة.[5]

أدّت هذه المعضلة إلى أزمة حادّة في أوساط الفلسطينيّين مواطني إسرائيل، وانعكست في ثلاثة مستويات: الأوّل المستوى الداخليّ الذي يَفترض أنّه لا إجماعَ بين السكّان العرب على الأَجِنْدة القوميّة والمَطالب السياسيّة كأقلّيّة قوميّة داخل إسرائيل التي تعرّف نفسها دولةً للشعب اليهوديّ؛ الثاني المستوى الإسرائيليّ الذي يفترض أنّ تعريف دولة إسرائيل دولة يهوديّة يمنح أولويّة لليهود، هذا التعريف مهّد الطريق لتعميق الإقصاء والتهميش والتمييز ضدّ المواطنين العرب في توزيع الموارد المادّيّة والرمزيّة؛ الثالث المستوى الفلسطينيّ الذي يفترض أنّ الأقلّيّة العربيّة بقيت على هامش الحركة الوطنيّة الفلسطينيّة، وأُقصيت من جدول أعمالها، ولم تحظَ باهتمام كافٍ من جانب القيادة الفلسطينيّة التي رأى بعض أفرادها العرب شأنًا إسرائيليًا داخليًا. أدّى هذا التطوّر المتأزّم إلى أن تكون الهُويّة المدنيّة (الإسرائيليّة) والهُويّة القوميّة (العربيّة الفلسطينيّة) للعرب جزئيّة، وخلق وضعًا هجينًا لأقلّيّة قوميّة تنتمي إلى الحيّز العربيّ وإلى الشعب الفلسطينيّ، وهي في الوقت نفسه جزء من المجتمع الإسرائيليّ بحكم المواطَنة الإسرائيليّة.[6]

في تحليل ماجد الحاجّ لواقع الهُويّة وتحوُّلاتها في المجتمع العربيّ داخل إسرائيل، يرى أنّ هُويّة العرب في دولة إسرائيل ديناميكيّة ومتغيّرة، وأنّها في سيرورة مستمرّة من التطوّر والتبلور. وَفقًا لهذا النهج، التغيّرات في هُويّة المواطنين العرب في إسرائيل تتأثّر بأربع دوائر رئيسيّة: الأولى هي الدائرة المحلّيّة، وترتبط بالبنْية الداخليّة والميزات الخاصّة للسكّان العرب والتغيُّرات التي طرأت مع مرور الوقت في منظومة القيم وأنماط الحياة. الدائرة الثانية تتعلّق بالبعد القوميّ لوضع العرب

(5). بويمل، 2007. ص 91–82.

(6). ماجد الحاجّ، "هويّة وتوجّه بين العرب في إسرائيل: حالة هامشيّة مزدوجة"، روت چيزون ودفنه هاكر (محرّرتان)، **الشرخ اليهوديّ - العربيّ في إسرائيل**. القدس: المعهد الإسرائيليّ للديمقراطيّة، 2000، ص 33-13.

Nadim Rouhana & Asad Ghanem, "The Crisis of Minorites in Ethnic State: The Case of Palestinian Citizens of Israel". *International Journal of Middle East Studies*. 30, 1998, pp. 321 – 346.

في الدولة اليهوديّة والسياسة المتّبَعة تجاههم، بالإضافة إلى علاقتهم بالأغلبيّة اليهوديّة. الدائرة الثالثة، وهي موضوع دراستنا، والتي لم تحظَ باهتمام كافٍ في الدراسات، مرتبطة بالبعد الإقليميّ والتطوّرات السياسيّة في المنطقة العربيّة. وأخيرًا، ترتبط الدائرة الرابعة بالبعد الدينيّ للهُويّة العِرقيّة والدينيّة للمسلمين والمسيحيّين والدروز.[7] ترى نظريّة أخرى أنّ هُويّة العرب في إسرائيل تتأثّر بالتغيّرات وبالتفاعل مع ثلاث دوائر رئيسيّة: الدائرة الداخليّة، أي التغيّرات داخل المجتمع الفلسطينيّ في إسرائيل نفسه، والإجماع السياسيّ الذي تبلور داخله؛ الدائرة الإسرائيليّة، التي تؤكّد على منظومة العلاقات التي تميّز الأغلبيّة اليهوديّة على الأقلّيّة العربيّة الفلسطينيّة؛ الدائرة الفلسطينيّة والعربيّة العامّة، التي تؤكّد على التطوّر السياسيّ في المجال الفلسطينيّ، إلى جانب التغيُّرات والتحوُّلات في العالم العربيّ، ولا سيّما الدول المجاورة لإسرائيل. تجدر الإشارة إلى أنّ هذه النظريّات تجاهلت الدائرة العالميّة التي أثّرت في تشكيل مجتمع مدنيّ يركّز على حقوق الأقلّيّات القوميّة والشعوب الأصلانيّة.[8]

يؤكّد الإطار التحليليّ الذي تقوم عليه هذه الدراسة أنّ الهُويّة والوعي والسلوك السياسيّ للمواطنين الفلسطينيّين في إسرائيل تحمل عوالم مضامين مختلفة. لقد تأثّرت هُويّتهم لسنوات بالصراع الإسرائيليّ العربيّ الأوسع، وتغذّت منه، ولم تكن محصَّنة في وجه تأثير التغيُّرات والأحداث المختلفة في العالم العربيّ، ولا تزال تخضع، حتّى اليوم، لتأثير التغيُّرات المختلفة والتقلّبات في الحيّز العربيّ، على الرغم من أنّ شدّة التأثير تغيّرت من حين لآخر على نحوٍ ما يمكننا أن نرى في هذا القسم. يوصف الواقع السياسيّ للأقلّيّة العربيّة في إسرائيل بأنّه انعكاس لِـ "الوعي المزدوج"؛ فالأقلّيّة العربيّة تُطوِّر ارتباطًا وطنيًا وعاطفيًا تجاه الشعب الفلسطينيّ والحيّز العربيّ، وفي الوقت نفسه هي مرتبطة عمليًا وعقلانيًا بالواقع الإسرائيليّ.[9] يعزّز هذا التأكيد من جانب أمل جمّال فرضيّةَ هذه الدراسةِ الأساسيّةَ، والتي مُلخَّصُها أنّ الأقلّيّة العربيّة في إسرائيل تنسجم بشدّة مع العالم العربيّ، على الرغم من ارتباطها العقلانيّ بالحيّز الإسرائيليّ. كذلك إنّ التقرير الإستراتيجيّ الذي نشره مؤخّرًا مركز إعلام، والذي وضعه عدد من الباحثين والأكاديميّين العرب، يؤكّد الارتباط العضويّ بين المجتمع العربيّ في إسرائيل والحيّز الإقليميّ، بل يعتبره ظاهرة طبيعيّة وعقلانيّة – حيويّة جدًا للمجتمع العربيّ؛ إذ إنّ انتماء الأقلّيّة العربيّة للحيّز هو جزء لا يتجزّأ من هُويّتها السياسيّة والثقافيّة والاجتماعيّة. إضافة إلى ذلك، ثمّة تفسير منطقيّ للالتزام بالانتماء للحيّز، وهو السعي الحثيث من جانب

(7). الحاجّ، 2000. ص 33–13.

(8). في العام 1992، تبنّت الهيئة العامّة للأمم المتّحدة "إعلان بشأن حقوق الأشخاص المنتمين إلى أقلّيّات قوميّة أو إثنيّة وإلى أقلّيّات دينيّة ولغويّة".
راجع: https://www.ohchr.org/ar/ProfessionalInterest/Pages/Minorities.aspx

(9). Amal Jamal, *The Arab Public Sphere in Israel: Media Space and Cultural Resistance*. Bloomington and Indianapolis: Indiana University Press, 2009, p. 131.

الأقلّيّة العربيّة للتخلّص من أغلال الضعف الهيكليّ، النابعة من مجرّد كونهم أقلّيّة قوميّة في دولة قوميّة يهوديّة. بهذا المعنى، جاء في التقرير: "للعرب الفلسطينيّين في إسرائيل امتدادهم السياسيّ والثقافيّ والحضاريّ في الحيّز العربيّ والإسلاميّ المحيط بإسرائيل، وهو ما يُزيل عنهم –في بعض الأحيان– صفة الأقلّيّة ويُدْرِجهم ضمن الأكثريّة في الحيّز الشرق أوسطيّ العامّ على ثقافته وتاريخه والانتماءات التي فيه."[10] إنّ التماهي مع الحيّز، أو التأكيد على الانتماء إليه، هو محاولة لكسر القيود والدونيّة الناتجة عن سياسة التمييز والإقصاء التي تنتهجها دولة إسرائيل تجاه الأقلّيّة العربيّة. سيكون هذا النموذج بمثابة نقطة انطلاق للمحاولة، في هذا المقام، لدراسة آثار "الربيع العربيّ" على المجتمع العربيّ في إسرائيل.

يشير التاريخ الاجتماعيّ – السياسيّ للمجتمع العربيّ إلى توجّه تعاقبيّ، وإلى وجود استمراريّة تاريخيّة لانسجام المجتمع العربيّ مع الحيّز، لا في كلّ ما يتعلّق بأنماط السلوك السياسيّ وسياسات الهُويّة فحسب، بل كذلك على مستوى الخطاب السياسيّ والنصّ الأيديولوجيّ والفكريّ. في جميع هذه النواحي، يستجيب المجتمع العربيّ في إسرائيل ويتأثّر بالحيّز العربيّ ويجسّد عمليًا أنّه يعتبر نفسه جزءًا من ذلك الحيّز. لا يقتصر عالَمُ المواطنين العرب السياسيُّ على بلدات سكناهم أو حدود الدولة؛ فهم يتأثّرون بالتطوّرات الحاصلة في العالم العربيّ، والتي تُعتبر جزءًا من "الأنا الموسّع" لديهم، وذلك خلافًا لما يقوله بعض الباحثين في هذا المجال الذين أشاروا إلى طبيعة الدولة كعامل يشكّل الواقع السياسيّ للمواطنين العرب في إسرائيل، بينما يتجاهلون آثار الحيّز العربيّ على أنماط سلوكهم السياسيّ.[11]

الأقلّيّة العربيّة، كما هي الحال بالنسبة لأقلّيّات كثيرة في العالم، تتأثّر هي كذلك بدول الجوار والصراعات الإقليميّة، بل حتّى العالميّة، إلى جانب عوامل داخليّة، نحو: القيادة السياسيّة؛ علاقات الأغلبيّة والأقلّيّة؛ سلطة الدولة؛ الميزات الاجتماعيّة والديمجرافيّة لمجموعة الأقلّيّة.

أ. الحيّز السياسيّ

أ. 1. في ظلّ الناصريّة:

تركت حرب عام 1948 بصماتها على الفلسطينيّين في إسرائيل، وخلقت لديهم إحساسًا بالخوف والعزلة والهزيمة والإذلال. وجد الفلسطينيّون، الذين أصبحوا أقلّيّة على خلفيّة نتائج الحرب، أنفسهم في إطار سياسيّ جديد لا يعترف بهم كمجموعة ذات حقوق وطنيّة خاصّة، ويعاديهم ويحاول أن يفكّك أوصالهم؛ وعلاوة

(10). مركز إعلام، **التقرير الإستراتيجيّ: العرب الفلسطينيّون داخل الخطّ الأخضر**. الناصرة، 2016، ص 19.

(11). راجع –على سبيل المثال– كتابات أسعد غانم الأكاديميّة.

على ذلك، جرى وضعهم في حيّزات محدّدة خضعت لنظام رقابة صارم لمدّة عَقدين. كانت صدمة الهزيمة عاملًا حاسمًا في تشكيل السلوك السياسيّ للمواطنين العرب في العَقد الأوّل. في الوقت نفسه، نجحت النخبة الحاكمة في إسرائيل في تجذير حالة من الخوف الوجوديّ بين الأغلبيّة اليهوديّة؛ وذلك لأسباب دعائيّة خارجيّة والتجنيد والتحشيد الداخليّ.

أدّى الإحساس بالخوف والهزيمة بالفلسطينيّين في إسرائيل إلى تبنّي سياسة تصالحيّة في ما يتعلّق بدولة إسرائيل، وإيجاد التوازن بين بقائِهم السياسيّ والاجتماعيّ والاقتصاديّ في الدولة اليهوديّة، ومحاولةِ الحفاظ على الملامح والميزات الخاصّة بهُويّتهم الجماعيّة. وتعبيرًا عن التوازن بين اندماجهم في الإطار السياسيّ الجديد والحفاظ على هُويّتهم الفريدة، شاركوا في انتخابات الكنيست في عام 1949 وصوّتوا لصالح الأحزاب الصهيونيّة والأحزاب التابعة لها، التي كانت عبارة عن مُلحقات لحزب "مباي" (الذي ظهر في تلك الفترة حزبًا حاكمًا مهيمنًا) وتأتمر بأوامره. في الوقت نفسه، حافظوا على علاقة عاطفيّة وعقليّة بالحيّز ولم ينسحبوا منه، على الرغم من تأسُّس واقع جديد مُعادٍ لهذا الحيّز. يعيش الجمهور العربيّ شعور الوضع المؤقّت الذي قد يتغيّر في أيّ لحظة؛ فقد كان يأمل أن تنظّم الجيوش العربيّة نفسها في حملة جديدة من شأنها أن تضع حدًّا للنظام السياسيّ الجديد. لذلك، كانت الأيديولوجيّة القوميّة العربيّة للرئيس المصريّ، جمال عبد الناصر، أيديولوجيّة سائدة في الشرق الأوسط، ولم يكن تأثيرها يتجاوز المواطنين العرب في إسرائيل. آنذاك، تَحلّق الفلسطينيّون حول أجهزة الراديو في المنازل والمقاهي، واستمعوا على الدوام إلى إذاعة القاهرة التي كانت تبثّ خطابات عبد الناصر الذي كان قائدًا شعبيًّا ومحبوبًا لدى أوساط كثيرة من الجمهور الفلسطينيّ في إسرائيل.[12] وبالتالي، عشيّة الانتخابات للكنيست الرابعة عام 1959، حثّت وسائل الإعلام العربيّة المواطنين العرب على مقاطعة انتخابات الكنيست وعدم إضفاء الشرعيّة على نظام الحكم في إسرائيل.

كجزء من الرغبة في البقاء وتفادي مصير اللاجئين الفلسطينيّين، وضع الجمهور العربيّ "إستراتيجيّة الصمود" (الصمود في الوطن). في مركز هذه الإستراتيجيّة، حافظ السكّان العرب على علاقة عاطفيّة ورمزيّة مع القوميّة العربيّة، بينما سعى هذا الجمهور على المستوى الفرديّ للحفاظ على مصالحه الشخصيّة واحتياجاته اليوميّة، وعلى مدار السنوات انكبّت الأقلّيّة العربيّة في إسرائيل على العمل على بقائها ووجودها، وناضلت تدريجيًّا في سبيل اندماجها في الدولة على قدم المساواة.[13]

(12). مصطفى كبها، الصحافة العربيّة في ظلّ الحكم العسكريّ 1948–1966، في: كبها، 2014. ص 170–123.

(13). أمل جمّال، "حول نماذج تأسيس اللا–مساواة القوميّة في إسرائيل"، في: آفي برئيلي، دانئيل چوطفيين وطوفيا فريلينج (محرّرون) **المجتمع والاقتصاد في إسرائيل: مقاربة تاريخيّة آنيّة**. بئر السبع: معهد بن چوريون لبحث إسرائيل، 2005، ص 145–182.

كان للهزيمة، التي تمخّضت عنها الحرب عام 1948، الأثر البالغ في تشكيل السلوك السياسيّ للمواطنين العرب في العَقد الأوّل من عمر الدولة؛ إذ تميّز العَقد الأوّل بعد قيام الدولة اليهوديّة بالاحتجاج السياسيّ المحدود جدًّا، كنتيجة مباشرة لهزيمة عام 1948 ومخاوف الفلسطينيّين الذين بقوا في إسرائيل من مصير مماثل لمصير البلدات التي دُمّرت وأُجْلِيَ سكّانها. في عام 1956، تعزّزت العلاقة بين التطوّرات السياسيّة في المنطقة العربيّة، والتطوّرات السياسيّة في أوساط العرب في إسرائيل. ولعلّ في حركة الاحتجاج المتواضعة التي أعقبت مجزرة كفر قاسم خير دليل على حالة الانهزاميّة والخوف التي هيمنت على النفسيّة السياسيّة لدى المواطنين العرب داخل إسرائيل. وهنا يجدر بالذكر أنّ المجزرة وقعت بعد أن فُرض حظر تجوّل على سكّان كفر قاسم وأُعلن عن البلدة منطقة مغلقة، في حين كان بعض السكّان يزاولون أعمالهم خارج القرية. ولدى عودتهم من العمل، فتحت قوّات الأمن النار باتّجاههم وقتلت تسعة وأربعين (49) منهم رميًا بالرصاص.

كما هو الحال في أجزاء أخرى من العالم العربيّ، لم تبْقَ الأقلّيّة العربيّة في إسرائيل غير مبالية بأيديولوجيّة القوميّة العربيّة التي أطلقها الرئيس المصريّ جمال عبد الناصر. استُقبلت خطابات عبد الناصر بتعاطف كبير في أوساط المواطنين الفلسطينيّين في إسرائيل. بالإضافة إلى ذلك، أثارت خطاباته الفخر القوميّ لديهم، وكانت بمثابة ثقل مُوازن للهزيمة السياسيّة والعسكريّة التي لحقت بالجيوش العربيّة في حرب عام 1948. هناك الكثير من الأدلّة على أنّ خطابات عبد الناصر حظيت بشعبيّة واهتمام خاصّين. لقد اعتُبر عبد الناصر زعيمًا بلا منازع قادرًا أن يضع حدًّا للانقسامات العربيّة، ويحقّق حلم الوحدة العربيّة، ويخلّص العرب من الواقع المتأزّم الذي زُجّ بهم فيه منذ إقامة الدولة اليهوديّة.[14]

في نهاية خمسينيّات القرن الماضي، بات واضحًا أنّ الأيديولوجيّة العربيّة قد أصبحت مهيمنة في الشرق الأوسط. تحقّق مشروع الوحدة العربيّة للمرّة الأولى في الفاتح من شباط عام 1958، عندما أعلن جمال عبد الناصر، الرئيس المصريّ، وشكري القوّتلي، رئيس الجمهوريّة السوريّة، عن إنشاء "الجمهورية العربيّة المتّحدة". الوحدة بين مصر وسوريا، باعتبارها انعكاسًا للقوميّة العربيّة وإحياءً للقوميّة والوحدة العربيّة، أثّرت في الهُويّة والوعي والسلوك السياسيّ لدى الأقلّيّة الفلسطينيّة في دولة إسرائيل. تأسيس الجبهة الشعبيّة في عام 1958، وحركة الأرض بعدها بعام واحد، كان إلى حدّ كبير صدًى مباشرًا لاشتداد عزيمة العروبة الثوريّة في الحيّز. بشكل أو بآخر، قرنت المؤسّسة الإسرائيليّة "أسرة الأرض" بالمدّ الثوريّ للقوميّة العربيّة، ليأتي الإعلان عنها حركة خارجة عن القانون على هذه الخلفيّة، حيث وقّع رئيس الحكومة ووزير الدفاع ليڤي إشكول في نهاية عام 1964 على قرار رسميّ

(14). دان شيفطان، **الفلسطينيّون في إسرائيل: نضال الأقلّيّة العربيّة ضدّ الدولة اليهوديّة**. أور يهودا: زموره–بيتان، 2011، ص 80.

بحظر نشاطها.[15]

جاء تأسيس حركة أسرة الأرض عام 1959 ردًّا وتجاوبًا واضحًا مع المدّ الثوريّ للحركة القوميّة العربيّة، بعد صعود نجم الناصريّة على خلفيّة حرب السويس عام 1956. أفرز هذا التحوّل –في ما أفرز– بطلًا قوميًّا (عبد الناصر) تمكّن من تحدّي إرادة وعدوان الدول الاستعماريّة – التقليديّة، وبالتالي أدرك عبد الناصر الطاقات الخلّاقة الكامنة في الشعور القوميّ الذي تجلّى خلال العدوان من خلال مظاهرات عارمة عمّت العالم العربيّ تضامنًا مع مصر. على الرغم من حالة القطيعة والعزلة التي فرضها الواقع وعزّزتها الدولة العبريّة، لم يبقَ المجتمع العربيّ خاملًا حيال التحوّلات الحاصلة من حوله في حقبة الخمسينيّات التي شهدت حرب السويس وصعود نجم الناصريّة وحدوث أوّل تجربة وحدويّة في التاريخ العربيّ المعاصر عندما أقدمت سوريا على مشروع الوحدة مع مصر بقيادة عبد الناصر، ووقوع الحرب الأهليّة الأولى في لبنان، وسقوط النظام المَلَكيّ – الهاشميّ (في العراق) المُوالي للغرب والعضو المؤسِّس لحلف بغداد. لا يمكن فصل تأسيس حركة الأرض عن الحالة الثوريّة التي شهدها المشرق العربيّ آنذاك.[16] وكان ممّا يؤكّد ذلك أيضًا ردّة الفعل الحاسمة وغير المتهاونة من جانب السلطات الإسرائيليّة، حيث اعتبرت إسرائيل آنذاك ظهور هذا التنظيم بمثابة تهديد للأمن القوميّ، وتعاملت معه على هذا الأساس، ولم تتورّع عن إعلانه تنظيمًا خارجًا عن القانون وحظر نشاطه على أساس أنّه حالة امتداد للحالة الناصريّة التي اعتبرتها إسرائيل خطرًا وجوديًّا تجب مواجهته بكلّ الوسائل.

برز تأثير الحيّز العربيّ على الجمهور العربيّ في إسرائيل خلال حرب الأيّام الستّة عام 1967 أيضًا، الحرب التي أسفرت عن انتصار إسرائيل وهزيمة الجيوش العربيّة. أدّت هزيمة الدول العربيّة إلى احتلال إسرائيل لِما تبقّى من فلسطين الانتدابيّة، إضافةً إلى أجزاء من الدول العربيّة، كالضفّة الغربيّة والقدس وقِطاع غزّة وهضبة الجولان وشبه جزيرة سيناء. نتيجة لذلك، استُؤنِف التواصل بين الفلسطينيّين في الأراضي المحتلّة والمواطنين الفلسطينيّين في إسرائيل بعد عَقدين من القطيعة الفعليّة.

(15). روني شاكيد، "بين الأرض وبلد: البحث عن الهُويّة القوميّة"، في: عزيز حيدر (محرّر)، **جوانب سياسيّة في حياة العرب مواطني إسرائيل**. القدس: إصدار معهد فان لير وهكيبوتس همئوحاد، 2018، ص 175–177.
(16). شاكيد، 2012. ص 68–64.

أ.2: الانبعاث المتجدّد للحركة الوطنيّة الفلسطينيّة وارتداداته الداخليّة:

كان لاستئناف اللقاء بين الفلسطينيّين في إسرائيل والفلسطينيّين في الضفّة الغربيّة وقِطاع غزّة انعكاساتٌ هامّة على الجمهور العربيّ الفلسطينيّ في دولة إسرائيل. حدث اللقاء بين الفلسطينيّين الذين في إسرائيل والفلسطينيّين الذين في الضفّة الغربيّة بالتزامن مع ارتفاع مكانة المقاومة الفلسطينيّة، وتعزيز مكانة منظّمة التحرير الفلسطينيّة، الأمر الذي أدّى بدوره إلى زخْم في سيرورة الإدلاء بالهُويّة الفلسطينيّة الكامنة في أوساطهم. جاء ذلك أيضًا متزامنًا مع انحسار المدّ القوميّ في السياق العربيّ، والشَرْعَنة المتجدّدة لوجود الدولة القُطْريّة. كردّ فعل على التطوّرات السياسيّة في الحيّز العربيّ، طوّر الفلسطينيّون في إسرائيل في تلك السنوات "شِعر المقاومة" الذي كان من بين روّاده أعضاءٌ في الحزب الشيوعيّ في إسرائيل، من أبرزهم: محمود درويش وتوفيق زيّاد وسميح القاسم. أكّد الشعر على صمود العرب في وطنهم وكونهم جزءًا من الشعب الفلسطينيّ والأمّة العربيّة. عكَسَ شعر المقاومة ثقافة النضال العربيّ والفلسطينيّ، ومن خلاله ناضل هؤلاء الشعراء ضدّ هيمنة واستعلائيّة الأغلبيّة اليهوديّة.[17] علاوة على ذلك، جاءت حرب تشرين (يوم الغفران)، عام 1973، لتغيّر نوعًا ما الشعور بالهزيمة والإهانة الذي عانت منه الجيوش العربيّة خلال حرب الأيّام الستّة. هذه التغيّرات، من الهزيمة إلى كسر أسطورة الجيش الذي لا يُقهر، بثّت أملًا متجدّدًا لدى المواطنين العرب في دولة إسرائيل، وأعادت تأهيل صورتهم الذاتيّة، وسرّعت سيرورات الإدلاء بالانتماءَيْن العروبيّ والفلسطينيّ اللذين انتكسا في أعقاب حرب عام 1948.

يدلّ تسلسل الأحداث والتوجّهات منذ عام 1948 على انسجام واضح بين التطوّراتِ السياسيّة والتحوّلات في الحيّز العربيّ، والتطوّراتِ السياسيّة لدى المواطنين الفلسطينيّين في دولة إسرائيل. ولا مبالغة في القول إنّ ارتفاع مكانة المقاومة الفلسطينيّة بعد حرب عام 1967، وحرب يوم الغفران عام 1973، شكّل خلفيّة للتغيُّرات التي ميّزت السياسة الوطنيّة للمجتمع العربيّ في أوائل السبعينيّات، وخاصّة إنشاء منظّمات وطنيّة في العامَيْن 1974 – 1975. يمكن أن نرى بوضوح أنّ سيرورة الفَلَسْطَنة أدّت كذلك إلى إنشاء مؤسّسات وطنيّة عربيّة للعرب في دولة إسرائيل. فعلى سبيل المثال، في عام 1974 أُنشئت لجنة قطْريّة للسلطات المحلّيّة العربيّة، وفي عام 1975 شُكّلت مجالس الطلّاب الشيوعيّة في المدارس الثانويّة، ولجان الطلّاب العرب في الجامعات الإسرائيليّة، ولجنة الدفاع عن الأراضي التي قادت احتجاج الفلسطينيّين مواطني إسرائيل ضدّ سياسة الحكومة.[18]

(17). محمود غنايم، "بين الشهادة التاريخيّة وأَسْطَرة الواقع"، في: كبها، 2014. ص 106–122.
(18). مهنّد مصطفى وأسعد غانم، "التنظيم السياسيّ للفلسطينيّين في إسرائيل فترة الحكم العسكريّ"، في: كبها، 2014. ص 51–54.

خلال الفترة الواقعة بين إنشاء اللجنة القُطْريّة للسلطات المحلّيّة العربيّة في عام 1974، وأحداث يوم الأرض في عام 1976، كانت هناك زيادة كبيرة في أهمّيّة ومكانة اللجنة القطْريّة، على الرغم من الانقلاب السياسيّ الذي وقع في مدينة الناصرة في عام 1975؛ إذ نجح الحزب الشيوعيّ في العام نفسه في إحداث تغيير فعليّ في السياسة العربيّة بصورة عامّة، والسياسة ذات الصلة بالسلطات المحلّيّة بصورة خاصّة، وذلك من خلال تأسيس "الجبهة الديمقراطيّة في الناصرة"، التي هي في الأساس ائتلاف محلّيّ شكّل الحزبُ الشيوعيّ مركزه، وإلى جانبه قوًى وطنيّة محلّيّة. حقّقت الجبهة انتصارًا ساحقًا على مرشّح "الحزب الحاكم" والقوى التقليديّة الأخرى في الناصرة. صوّت في تلك الانتخابات أكثر من 75% من الناخبين في الناصرة لصالح الحزب الشيوعيّ الذي فاز بأغلبيّة ساحقة تمثّلت في 11 مقعدًا من أصل 17، إلى جانب الفوز برئاسة البلديّة. اعتُبِر فوز الجبهة في الناصرة في عام 1975 تحوّلًا في السياسة المحلّيّة والقطريّة، فقد كان هذا الفوز تعبيرًا عن النهضة الوطنيّة المتجدّدة وانهيار القيادة التقليديّة القديمة وظهور قيادة وطنيّة جديدة. كذلك تأثّر انتصار الجبهة بالتحوُّلات والتغيُّرات التي طرأت على الحيّزَيْن الفلسطينيّ والعربيّ. أفضى سقوط القيادة التقليديّة التي اعتُبرت مرتبطة بالسلطة، وانتصار القيادة السياسيّة الوطنيّة، إلى تغيّر حقيقيّ في عمل اللجنة القطريّة لرؤساء السلطات المحلّيّة العربيّة، من هيئة تتعامل على نحوٍ حصريّ مع القضايا المحلّيّة، إلى منظّمة تمثيليّة تتعامل مع القضايا الوطنيّة، نحو: يوم الأرض؛ تأسيس لجنة المتابعة العليا للجماهير العربيّة.[19]

كان اندلاع أحداث الـ 30 من آذار عام 1976، المعروفة باسم "يوم الأرض"، انعكاسًا واضحًا لتعزيز المشاعر الوطنيّة بين المواطنين العرب في دولة إسرائيل. إنّ الجمع بين نهضةِ الحركة الوطنيّة الفلسطينيّة التي احتلّت مكانة خارج الساحة العربيّة، والأزمةِ في الثقة بالنفس لدى إسرائيل بعد حرب يوم الغفران، مكّن المواطنين العرب من مواجهة الأغلبيّة اليهوديّة في مسألة الأرض. يتعلّق المحفّز الرئيسيّ لأحداث يوم الأرض بمخطَّط الدولة لمصادرة نحو 21 ألف دونم في منطقة البطّوف، باعتبار هذا جزءًا لا يتجزّأ من "تهويد الأرض" الذي استهدف الجليل، عقب إنشاء المدينتين اليهوديّتين نتسيرت عيليت وكرميئيل، وذلك من خلال مصادرة أراضي المواطنين العرب في تلك المناطق. كان الغرض من مخطّط مصادرة الأراضي في الجليل تغييرَ التوازن الديموچرافيّ من خلال زيادة وجود السكّان اليهود، جنبًا إلى جنب مع دقّ أسافين يهوديّة في قلب التواصل الجغرافيّ للبلدات العربيّة في الجليل.[20] ردًا على سياسة الحكومة، وازدياد قوّة الحزب الشيوعيّ وقيادته

(19). إيلي ريخس، **بين الشيوعيّة والقوميّة العربيّة: الحزب الشيوعيّ الإسرائيليّ والأقلّيّة العربيّة في إسرائيل**. تل أبيب: هكيبوتس هميئوحاد، 1993. ص 90–110؛ شيفطان، 2011. ص 99؛ نبيه بشير، **يوم الأرض: ما بين القوميّ والمدنيّ**. حيفا: مدى الكرمل، 2006.

(20). خليل نخلة، "يوم الأرض"، في: نديم روحانا وأريج صبّاغ –خوري (محرّران)، **الفلسطينيّون**

السياسيّة، إلى جانب تعزيز العنصر القوميّ العربيّ والعنصر الفلسطينيّ في هُويّة المواطنين الفلسطينيّين في إسرائيل، أُعلن عن إضراب عامّ في الـ 30 من آذار عام 1976 احتجاجًا على سياسة مصادرة الأراضي. في الوقت نفسه، حاولت الحكومة كسر الاحتجاج العربيّ، وذلك من خلال تجنيد رؤساء سلطات محلّيّة ليعملوا على إحباط الإضراب العامّ، وممارسة الضغط على رؤساء السلطات المحلّيّة الآخرين، لعزل الحزب الشيوعيّ الإسرائيليّ ورؤساء السلطات المحلّيّة الذين تماهوا معه. بعد أن فشلت هذه الخطوات، انتقلت أجهزة الأمن إلى فضّ الإضراب بالقوّة، فنُشرت وحدات من الشرطة وحرس الحدود والجيش في قلب البلدات العربيّة، ونتيجة لذلك قُتل ستّة مواطنين فلسطينيّين وجُرح نحو خمسين (50) منهم، واعتُقل نحو ثلاثمئة (300) مواطن.[21] كان هذا الحدث نقطة تحوّل في كلّ ما يتعلّق بصورة العرب في نظر الدولة والأغلبيّة اليهوديّة؛ حيث إنّه للمرّة الأولى اصطدمت الجماهير العربيّة مع الأجهزة الأمنيّة الإسرائيليّة دون خوف أو وجل. لقد كانت هذه هي المرّة الأولى في التاريخ التي أثّر فيها العرب في إسرائيل على الحيّز الفلسطينيّ العامّ وَ "صدّروا" من خلالها أيديولوجيّة الصمود. يشير هذا إلى أنّ أحداث يوم الأرض غيّرت النظرة الذاتيّة للجمهور العربيّ في إسرائيل، من أقلّيّة صغيرة ضعيفة وفاقدة للقدرة على العمل، إلى صورة ذاتيّة لجمهور قويّ يتمتّع بقوّة التأثير. ولذا، أصبح يوم الأرض عيدًا وطنيًّا في دول مختلفة، وفي صفوف الفلسطينيّين في المناطق المحتلّة، وفي مخيّمات اللاجئين بين الفلسطينيّين، وفي جزء كبير من الدول العربيّة على حدّ سواء.[22]

علاوة على ذلك، انتصار الجبهة الديمقراطيّة في الناصرة في الانتخابات المحلّيّة عام 1975 كانت له إسقاطاته على ساحات سياسيّة أخرى. تبنّى الحزب الشيوعيّ النموذج المحلّيّ في الناصرة، فأسّس في عام 1977 الجبهة الديمقراطيّة للسلام والمساواة ("حَداش")، كحركة سياسيّة وطنيّة، وذلك لتوسيع قاعدة الدعم للحزب الشيوعيّ وضمّ ناشطين جدد إلى صفوفه. أصبحت الجبهة الديمقراطيّة للسلام والمساواة الحزب الأبرز في أوساط الجمهور العربيّ في الانتخابات القُطْريّة والمحلّيّة في السبعينيّات والثمانينيّات، إذ نجحت في عام 1977 في نَيْل دعم 51% من الناخبين العرب في انتخابات الكنيست. بالإضافة إلى ذلك، شهدت الانتخابات المحلّيّة التي أجريت عام 1978 تغيُّرًا ملحوظًا في السياسة المحلّيّة في المجتمعات العربيّة، في أعقاب نجاح الجبهة الديمقراطيّة للسلام والمساواة في إنشاء تحالفات محلّيّة والفوز برئاسة بعض السلطات المحلّيّة في بعض التجمّعات العربيّة في دولة إسرائيل. مع ذلك، طرأ في الفترة نفسها تغيّر كبير على نقاشات المجالس المحلّيّة،

في إسرائيل: قراءات في التاريخ والسياسة والمجتمع. حيفا: مدى الكرمل، 2011، ص 95–102.

(21). بشير، 2006.

(22). نخلة، 2011. ص 97.

من نقاش القضايا المحلّيّة المتعلّقة بمنظومة خدمات السلطة المحلّيّة والحاجات الأساسيّة للسكّان، إلى نقاش ذي طابع سياسيّ ووطنيّ واضح. بموازاة النهضة الوطنيّة على صعيد السلطات المحلّيّة في إسرائيل، أوصلت انتخابات عام 1976 في الضفّة الغربيّة إلى السلطة عددًا كبيرًا من رؤساء البلديّات المحسوبين على منظّمة التحرير الفلسطينيّة ومؤيّدي النضال الفلسطينيّ، بعد فوزهم على المرشّحين المحسوبين على إسرائيل. بعد انتصارهم، بدأوا في توثيق العلاقات مع القيادة الوطنيّة للعرب في إسرائيل، وخاصّة قادة الحزب الشيوعيّ.[23]

بموازاة الهبّة الوطنيّة في الأراضي الفلسطينيّة، التي أثّرت في تعزيز الهُويّة الوطنيّة لدى السكّان العرب، والتي بلغت ذروتها في الفترة الممتدّة من السبعينيّات إلى منتصف الثمانينيّات، كان هناك أيضًا ازدياد مطّرد في أهمّيّة البعد الدينيّ في الهُويّة الذاتيّة. تؤكّد الدراسات التي حاولت تتبُّع النهضة المتجدّدة والمُمَأسِسة للهُويّة الإسلاميّة أنّ اللقاء بين المواطنين الفلسطينيّين في إسرائيل والفلسطينيّين في الأراضي المحتلّة عام 1967 كان عاملًا هامًّا في تعزيز التوجّه الإسلاميّ في صفوف المواطنين العرب في إسرائيل. يُعزى ذلك، جزئيًّا، إلى التحاق الشباب العرب بالكلّيّات الدينيّة، في الضفّة الغربيّة والخليل، حيث تلقّوا دراسةً دينيّة وسياسيّة إبّان تعلُّمهم هناك، وانتقلوا إلى النشاط الدينيّ (الدعوة) عند عودتهم إلى مجتمعاتهم المحلّيّة في أوائل السبعينيّات. صعود الإسلام السياسيّ بديلًا أيديولوجيًّا للعروبة الثوريّة بدأ يجد أصداءَه في أوساط السكّان العرب المسلمين منذ السبعينيّات.[24] هذا إذا نظرنا إلى الجزئيّة الفلسطينيّة، إلّا أنّ صعود التيّار الإسلاميّ جاء في سياق صعود التيّار الإسلاميّ في العالم العربيّ. وبالتالي، انعكست حالة التجاوب مع المحيط العربيّ أيضًا مع صعود الحركات الإسلاميّة والمدّ الإسلاميّ في العالم العربيّ منذ بداية السبعينيّات. فكان تأسيس "أسرة الجهاد" في مطلع سنوات السبعين مؤشّرًا أوّليًّا على تأثّر المجتمع العربيّ بالتحوّل الحاصل في المحيط العربيّ وبالانتقال من الحالة الثوريّة – العروبيّة إلى الحالة الاحتجاجيّة – الإسلاميّة التي اعتبرت نفسها بديلًا عن كلّ ما سبقها، مؤسِّسةً لشرعيّتها على توظيف ما اعتُبر فشلًا لكلّ ما سبقه من أيديولوجيّات وسلوكيّات سياسيّة سادت المنطقة العربيّة في الخمسينيّات والستّينيّات.

في عام 1972، بادر الشيخ عبد الله نمر درويش إلى تأسيس أوّل نواة للحركة الإسلاميّة في إسرائيل. تحت قيادة الشيخ درويش، عملت "أسرة الجهاد" سرًّا لجمع الأسلحة والمعدّات العسكريّة، وكانت بمثابة منظّمة دينيّة سرّيّة هدفها الفوريّ ضرب أهداف إسرائيليّة، وهدفها الطوباويّ هو النضال من أجل بناء دولة

(23). الحاجّ، 2000. ص 13–33.

(24). Nohad Ali, "Political Islam in an Ethnic Jewish State: Its Historical Evolution, Contemporary Challenges and Future Prospects". *Journal of Holy Land Studies*. 3(1), 2004, pp. 69-92.

إسلاميّة في فلسطين التاريخيّة. أُعتقل الشيخ درويش مع مجموعة من الشبّان عام 1981 وجرت إدانتهم. بعد إطلاق سراحهم من السجن، خضعوا لتغيُّر نموذجيّ جعلهم أكثر پراچماتيّة، فاستأنفوا نشاطهم الدينيّ، بل وسّعوا مجالات نشاطهم – ولا سيّما على مستوى المجتمَعَيْن المحلّيّ والبلديّ.

خلال السبعينيّات والثمانينيّات، أنشأت الحركة عددًا آخر من الفروع في العديد من البلدات العربيّة، وبخاصّة في المثلّث. كان الانتقال من النشاط السياسيّ إلى الوعظ الدينيّ والاجتماعيّ بمثابة ردٍّ على خيبة الأمل من جانب المواطنين العرب من التوجّه القوميّ، وتحفّظٍ من طرفهم على قدرته على قيادة تغيير حقيقيّ في مصير الفلسطينيّين مواطني إسرائيل. أضف إلى ذلك أنّ اتّفاقيّة السلام "كامب ديڤيد" بين مصر وإسرائيل، التي وُقّع عليها في عام 1978، أخرجت مصر من دائرة الصراع العربيّ – الإسرائيليّ، وعزّزت من مشاعر ابتعاد الجمهور العربيّ عن القوميّة العلمانيّة العربيّة. جاءت حالة الأَسْلمة السياسيّة في المجتمع العربيّ امتدادًا للمدّ الإسلاميّ في المحيط العربي، الأمر الذي تمثّل من خلال الانتقال من الوعظ الدينيّ إلى النشاط السياسيّ والاجتماعيّ، واكتسب زخْمًا واضحًا في أعقاب الثورة الإيرانيّة عام 1979 التي أكّدت على الهُويّة الإسلاميّة دافعًا وصانعًا للثورة في إيران التي أصبحت مصدر إلهام للكثير من المسلمين. بالإضافة إلى تأثير الثورة الإسلاميّة في إيران، من الجدير بنا أن نذكر اتّفاقيّة الحجّ التي وُقّعت في عام 1978، والتي مُنح بفضلها المواطنون العرب، لأوّل مرّة، المجال لتأدية فريضتَيِ الحجّ والعمرة إلى مكّة وَفق الشريعة الإسلاميّة.[25]

كان في الانتفاضة الأولى، التي اندلعت في عام 1987، دليل آخر على العلاقة بين الأحداث والتطوّرات السياسيّة في الحيّز العربيّ عامّة، والحيّز الفلسطينيّ خاصّة، في السلوك السياسيّ لدى الفلسطينيّين مواطني إسرائيل. أدّى اندلاع الانتفاضة الأولى في الأراضي المحتلّة إلى زيادة نشاطات الاحتجاج بين العرب في إسرائيل، من خلال مظاهرات سلميّة عبّروا فيها عن تعاطفهم العميق مع نضال الشعب الفلسطينيّ، ومن خلال جمع التبرُّعات والحاجيّات الأساسيّة للشعب الفلسطينيّ. في الوقت نفسه، دفع التصعيد في الأراضي المحتلّة عضو الكنيست عبد الوهّاب دراوشة إلى الاستقالة من حزب العمل، الذي شكّل مع الليكود حكومة وحدة وطنيّة في الفترة الواقعة بين العامين 1984 وَ 1988، ليشكّل حزبًا جديدًا أحاديّ القوميّة، وأسماه الحزب العربيّ الديمقراطيّ، خاض الانتخابات للكنيست وحظِيَ بالتمثيل السياسيّ على مدى ثلاثة عقود. مع ذلك، في الانتخابات للكنيست الـ 12 أكّدت الأحزاب السياسيّة التي مثّلت الجمهور العربيّ، ومن بينها الجبهة الديمقراطيّة

(25). Majid Al-Haj, "The Impact of the Intifada on the Orientation of the Arabs in Israel: The Case of Double Periphery", In: Akiba Cohen & Gadi Wolsfeld (eds.) *Framing the Intifada: Media and People*. Nor Wood: Ablex Publishing Corporation, 1993, pp. 64 – 75.

للسلام والمساواة، على التضامن مع نضال الشعب الفلسطينيّ، واتّهمت ناشطي الأحزاب الصهيونيّة بأنّهم متعاونون، وأذناب للسلطة، ويؤمنون بالخرافات التي لا تخدم إلّا مصالحهم الشخصيّة.[26]

في أوج الانتفاضة الأولى، التي عمّقت عمليّة الانبعاث المتجدّد للهُويّة الوطنيّة – الفلسطينيّة في صفوف الفلسطينيّين مواطني إسرائيل، شهدت الساحة الإقليميّة والدوليّة حدثَيْن رئيسيَّيْن كانت لهما إسقاطات هامّة على المجتمع العربيّ في إسرائيل: حرب الخليج الثانية، التي حوّلت المواجهة بين العالم العربيّ وإسرائيل إلى صراع داخليّ بين الدول العربيّة، الأمر الذي أبرز محدوديّات وضعف أيديولوجيّة القوميّة العربيّة؛ وانهيار الاتّحاد السوفييتيّ والتغيّر الملحوظ في توازن القوى العالميّ. كان لهذين الحدثين تأثير حاسم في المواطنين العرب في إسرائيل، وخلق لديهم شعورًا بالإحباط. وبالتالي، من الممكن القول إنّ هذين الحدثين أنشبا مخالبهما الحادّة في المجتمع العربيّ في إسرائيل، بل عمّقا التشرذم والخلاف الداخليّ في المجتمع من خلال التخلّي عن التوجّه الوطنيّ الذي ميّز العَقدين الماضيين، وضعف النشاط السياسيّ في صفوفه. يمكننا أن نجد التجسيد لذلك في انتخابات الكنيست التي جرت عام 1992، التي عكست بأكبر قدر تأثير التغيُّرات السياسيّة في العالم والمنطقة على المواطنين الفلسطينيّين في إسرائيل من خلال تراجع واضح في الإقبال على التصويت، إلى جانب حصول انخفاض ملحوظ في تصويت الناخبين للأحزاب غير الصهيونيّة، وارتفاع في نسبة التصويت للأحزاب اليهوديّة والصهيونيّة. غنيّ عن الذكر أنّ التطوّرات الإقليميّة عمّقت الأزمة بين المواطنين العرب، وأبرزت بوضوح حالة "الهامش المضاعف" على حدّ تعبير ماجد الحاجّ.

أدارت اتّفاقيّات أوسلو ظهرها للفلسطينيّين مواطني إسرائيل، وأكّدت مكانتهم الهامشيّة في جدول أعمال الحركة الوطنيّة والقيادتين الفلسطينيّة والإسرائيليّة. عمليًّا، عزّزت اتّفاقيّات أوسلو الإقصاء والعزلة والاغتراب لدى المواطنين العرب، في ظلّ إقصائهم من الأَجِنْدة الإسرائيليّة وأَجِنْدة الحركة الوطنيّة الفلسطينيّة على حدّ سواء. ومرّت الحركة الإسلاميّة بأزمة سياسيّة وانقسامها إلى شقّيْن: شقّ شماليّ وآخر جنوبيّ. صحيح أنّه سبقت الانقسام الذي شهدته الحركة الإسلاميّة في منتصف التسعينيّات خلافاتٌ حول العديد من المواضيع والقضايا، إلّا أنّه من الواضح أنّ النزاع الجوهريّ – الرئيسيّ تمحور حول عمليّة السلام بين منظّمة التحرير الفلسطينيّة وإسرائيل. ففي حين أيّد قادة الشقّ الجنوبيّ –وعلى رأسهم الشيخ عبد الله نمر درويش– مسيرة أوسلو، عارض قادة الشقّ الشماليّ مبدأ التسوية، واعتبروا الاتّفاق "خيانة". عمليًّا، أدّت مسألة المشاركة في الانتخابات للكنيست عام 1996 إلى انشقاق داخل الحركة إلى شقَّيْن. توجّهت الحركة

(26). إيلي ريخس، "عرب إسرائيل كجسر للسلام – تداول الفكرة". **مجلّة الشرق الجديد** 1995، ص 86–79.

الإسلاميّة إلى الشيخ يوسف القرضاوي، الذي يُعتبر أحدَ أهمّ فقهاء المسلمين في النصف الثاني من القرن العشرين، ومرجعيّةً فقهيّة للعديد من الحركات الإسلاميّة، ولعشرات وربّما مئات الملايين من المسلمين في العالم. أصدر القرضاوي فتوى في هذا الصدد قضت بأنّه شرعيًا يُحظر على المسلمين المشاركة في الانتخابات للكنيست؛ لأنّ التصويت، أو الترشُّح، يعني الاعتراف بحقّ إسرائيل في الوجود أو بقائها على الأرض المغتصَبة. رفض الشيخ درويش قبول الفتوى، لكنّ قائدَي الشقّ الراديكاليّ –الشيخَيْن رائد صلاح وكمال خطيب– عارَضَا بشدّة، استنادًا إلى هذه الفتوى، المشاركةَ في الانتخابات للكنيست، بادّعاء أنّ مجرّد المشاركة هي اعتراف بشرعيّة الصهيونيّة.[27]

واضح هو التأثير القويّ للحيّز العربيّ في حالة الحركة الإسلاميّة؛ إذ ترتكز أيديولوجيّتها السياسيّة على قضيّة الانتماء إلى الإسلام، كحيّز ثقافيّ ودينيّ وسياسيّ، ويمكن اعتبار الحركة الإسلاميّة بشقَّيْها امتدادًا طبيعيًا لحركة الإخوان المسلمين في مصر، شأنها في ذلك شأن الكثير من الحركات الإسلاميّة في المحيط العربيّ. إضافة إلى ذلك، الانشقاق الذي شهدته الحركة كان، في الأساس، متعلّقًا بقضيّة إقليميّة بحتة، ألا وهي قضيّة العمليّة السياسيّة وحلّ المشكلة الفلسطينيّة. علاوة على ذلك، وقع الانشقاق نفسه على خلفيّة تدخّل الحيّز العربيّ في الخلافات داخل الحركة، لتكون فتوى الشيخ القرضاوي هي التي أدّت إلى الحسم بشأن الانشقاق.

جاء حضور المحيط العربيّ في سلوكيّات الحركة الإسلاميّة واضحًا في ظلّ "الربيع العربيّ" وما أفرزه من تطوّرات سياسيّة، حيث أدّى فوز الإسلاميّين في الانتخابات في تونس ومصر إلى شدّ عزائم الحركة محلّيًا. في السياق ذاته، أثار الانقلاب العسكريّ الذي أدّى إلى الإطاحة بالرئيس المنتخَب ووصول عبد الفتّاح السيسي إلى سدّة الحكم، أثار ذلك إطلاقَ حملة تعاطف مع الرئيس المخلوع محمّد مرسي. من الواضح أنّ حملة التضامن مع الرئيس المخلوع مرسي كانت مؤشّرًا بحثًا على انسجام الأقلّيّة العربيّة مع الحيّز، لأنّ الحركة الإسلاميّة في إسرائيل (خاصّة الشقّ الشماليّ الذي يتميّز بكونه أيديولوجيًا أكثر) اعتبرت فوز الإخوان المسلمين في الانتخابات الرئاسيّة والبرلمانيّة في مصر عاملًا داعمًا من شأنه تعزيز مكانتها في المجتمع العربيّ حتّى على المستوى العقليّ. وبالمقدار نفسه، أدّت الإطاحة بمرسي وإسقاط حكم الإخوان المسلمين إلى موجة من التضامن والتعاطف – وبخاصّة لدى الشقّ الشماليّ.[28]

(27). مهنّد مصطفى، "المشاركة السياسيّة للحركة الإسلاميّة في إسرائيل"، في: إيلي ريخس وأريك رودنيتسكي (محرّران)، **أقلّيّات مسلمة في دول أغلبيّة لا إسلاميّة: الحركة الإسلاميّة في إسرائيل كدراسة حالة**. تل أبيب: إصدار جامعة تل أبيب، 2011، ص 100–101.

(28). أمل جمّال، "وعي مزدوج وثوريّة مُعلّقة: حول التجسّد السياسيّ للمواطنين الفلسطينيّين في إسرائيل في ظلّ الربيع العربيّ"، **مجلّة المجال العموميّ**، 13، 2017، ص 114–118.

ب. ما يتعدّى الفضاء القوميّ – المحض

ب.1: إسقاطات التسوية والاستثناء:

لقد اعتبرت النخبة السياسيّة والفكريّة للمجتمع العربيّ في إسرائيل عمليّةَ أوسلو، والقرارَ التاريخيّ لمنظّمة التحرير الفلسطينيّة بالقبول بمبدأ تقسيم فلسطين، إقصاءً للأقلّيّة العربيّة في إسرائيل عن إطار الحلّ المستقبليّ. وفي هذا الصدد، يمكن اعتبار تأسيس التجمّع الوطنيّ الديمقراطيّ، وظهور خطاب الأمّة المدنيّة – السياسيّة الذي صاغه عزمي بشارة، ووثائق التصوّر المستقبليّ للعرب الفلسطينيّين في إسرائيل التي صدرت في وقت لاحق، نوعًا من الاستجابة للشعور المتنامي بالحصار لدى الأقلّيّة العربيّة في إسرائيل، على ضوء تذويته المتزايد أنّ التسوية المستقبليّة للمشكلة الفلسطينيّة لن تشمل الأقلّيّة العربيّة في إسرائيل. بكلمات أخرى، كان ردّ الأقلّيّة العربيّة على أوسلو تطوير الخطاب السياسيّ الذي يتحدّى هيمنة الفكرة الصهيونيّة في إسرائيل والبحث عن بدائل فكريّة – أيديولوجيّة تُفكّك الخطابَ الصهيونيّ وتتحدّى شرعيّتها الأخلاقيّة والسياسيّة، وعليه تَوصّل العرب إلى استنتاج مُؤدّاهُ أنّه يتعيّن عليهم الاهتمام بتحسين وضعهم المدنيّ في دولة إسرائيل، وإدارة نضالهم داخل المجتمع الإسرائيليّ في إطار القانون وفي إطار الواقع السياسيّ – الإسرائيليّ وسقوط أيّ رهان على المحيط كعامل يمكن الاستعانة به لتغيير وضعيّة العرب السياسيّة في إسرائيل. برز هذا المسار على خلفيّة توقيع دول عربيّة على معاهدات سلام مع إسرائيل، وبموازاة المفاوضات التي تُجريها دول عربيّة أخرى مع إسرائيل، على نحو مباشر أو غير مباشر. أبرزت هذه الأحداث حدّة الأزمة العربيّة، وعجّلت عمليّة التركيز على الجانب المحلّيّ بين العرب في إسرائيل.[29] في هذا الصدد، لا بدّ من الإشارة إلى قنوات التواصل التي بناها بعض أعضاء الكنيست العرب في أعقاب توقيع اتّفاقيّة أوسلو مع بعض الدول العربيّة، وبخاصّة مع الأردن وسوريا وبعض دول الخليج. أسهمت هذه العلاقات، على الرغم من تواضعها ومحدوديّة تأثيرها، في الاستعانة بهذه الدول لدعم مشاريع محلّيّة، كبناء إستاد الدوحة في سخنين، على سبيل المثال، أو تجنيد مِنح للطلّاب العرب. فضلًا عن هذا، باتت بعض العواصم العربيّة محطًّا لزيارات بعض أعضاء الكنيست العرب؛ ففي العام 2010 زار ليبيا وفدٌ كبير ضمّ عشرات الشخصيّات السياسيّة والاجتماعيّة والأكاديميّة، والتقى بالعقيد معمّر القذّافي.[30] على الصعيد ذاته، نجح النائب البرلمانيّ السابق عزمي بشارة في بناء علاقات تواصل ثابتة مع النظام الحاكم في سوريا، وحظِيَ مرّات عدّة باستقبال من قِبل قائدَيِ النظام حافظ وبشّار الأسد. مؤخّرًا قام النائبان الحاليّ أحمد الطيبي

(29). شيفطان، 2011. 113–120.
(30). http://www.panet.co.il/article/289520

والسابق جمال زحالقة بزيارة تاريخيّة لجامعة الدول العربيّة، لطرح تصوّر موقف عرب الداخل من قانون القوميّة الذي صَدَّق عليه مؤخّرًا الكنيست الإسرائيليّ.[31] كلّ هذا ينصبّ في إطار محاولات متواصلة من قِبل النخبة السياسيّة لاختراق العزلة في محاولة واضحة لتوظيف الدبلوماسيّة العربيّة ابتغاءَ الضغط على إسرائيل. يبدو أنّ القيادات السياسيّة العربيّة بدأت تدرك أنّ انفتاح بعض الدول العربيّة على إسرائيل ليس بالضرورة لمصلحة إسرائيل بالمطلق، وإنّما يمكن توظيفه لتحقيق بعض المكاسب – وإن كانت جزئيّة.

ب. 2: التواصل الثقافيّ والاجتماعيّ في ظلّ العزلة القسريّة:

إذا كان اتّفاق أوسلو قد نُظر إليه على أنّه حالة هجر للأقلّيّة العربيّة داخل إسرائيل لتُواجه مصيرها أمام الأخيرة، فإنّ اتّفاقيات السلام التي وُقّعت مع مصر والأردن على وجه الخصوص كان لها دون أدنى شكّ مردودٌ إيجابيّ على المجتمع العربيّ، وتنفيسٌ جزئيّ لا تجوز الاستهانة به في السياق الثقافيّ والاقتصاديّ والسياحيّ. ولعلّ أبرز المردودات الإيجابيّة كان الازدياد المطّرد في عدد الطلّاب الجامعيّين الذين يدرسون في الجامعات الأردنيّة، ولا سيّما في المواضيع التي يتعذّر أو يصعب عليهم الالتحاق بها في الجامعات الإسرائيليّة، وعلى وجه التحديد كلّ المواضيع المرتبطة بالطبّ.[32] يُضاف إلى ذلك أنّ السلام مع الأردن وفّر للمواطنين العرب في إسرائيل فرصة الخروج في رحلات سياحيّة إلى الفنادق الأردنيّة بأسعار يتحمّلها المواطن العاديّ. الأمر ذاته ينطبق على الحالة مع مصر. وتكفي مراجعة مكاتب السياحة في الأعياد والعطل للوقوف على حجم السياحة العربيّة من البلاد في المنتجعات المصريّة في شرم الشيخ وطابا، والأردنيّة في العقبة والبحر الميّت.[33]

هنالك بُعد ثقافيّ واضح في تعامل المواطنين العرب مع حالة الانفتاح على العالم العربيّ من خلال النافذة الأردنيّة والمصريّة، يتمثّل في تعطُّش المواطنين العرب في إسرائيل للتواصل مباشرة مع الحالة الفنّيّة في العالم العربيّ، وبالتالي ازدهرت في الآونة الأخيرة ظاهرة تنظيم حفلات موسيقيّة لفنّانين كبار مُعَدّة بالأساس

(31). زحالقة في جامعة الدول العربيّة بالقاهرة: إسرائيل تفضح نفسها بنفسها" https://www.alarab.com/Article/871212

(32). راجع الدراسة التالية: قُصيّ الحاجّ يحيى، "دراسة تحليليّة في معطيات تشغيل الأكاديميّين العرب في سوق العمل الإسرائيليّ"، **مجلّة الرسالة**، المعهد الأكاديميّ لإعداد المعلّمين العرب، 14، 2006، ص 150.

(33). هذه الحركة السياحيّة الناشطة لعرب الداخل كانت وراء قرار السلطات الأردنيّة إلغاء تأشيرات الدخول لحاملي الجنسيّة الإسرائيليّة وتخفيض رسوم الدخول إلى المملكة ومواقع سياحيّة بارزة في الأردن. راجع تقرير إيتمار أيخنر، "الأردن يلغي تأشيرة الدخول للسيّاح الإسرائيليّين" (بالعبريّة):
https://www.ynet.co.il/articles/0,7340,L-5310786,00.html

للمواطنين العرب في إسرائيل. ولا يخفى علينا أيضًا التواصل الاجتماعيّ الحاصل عبْر الأردن بين الداخل والشتات الفلسطينيّ، حيث أصبح الأردن -بمفهوم ما- محطًّا للقاء الأقارب والعائلات التي أعيتها السبُل جرّاء ما ترتّب على حربٍ عام 1948. من المفهوم ضمنًا أنّ القرب الجغرافيّ للأردن هو عامل مهمّ في هذا الاندفاع إلى المحيط، حيث ينظر المواطن العربيّ إلى الأردن على أنّه متنفَّس من حالة العُزلة والاختناق والتمييز والتهميش والإقصاء التي تُكوِّن معًا كينونة الإنسان العربيّ داخل الدولة العبريّة. التواصل الثقافيّ مع الدول العربيّة في الخليج هو استحقاق آخَر ترتّب على اتّفاقيّة أوسلو والتطبيع الجزئيّ الحاصل بين إسرائيل وعدّة ممالك في الخليج، وعلى رأسها قَطَر والإمارات.

تتّضح، في السنوات الأخيرة، العلاقة بين الفلسطينيّين في إسرائيل والعالم العربيّ من خلال الجوانب الثقافيّة والفنيّة. أصبحت بيروت موقعًا يرتاده الشباب، الفنّانون والمثقّفون ورجال الفكر الذين يسافرون إليها لحضور المؤتمرات والبرامج الواقعيّة والأحداث الثقافيّة المختلفة. إنّ المجتمع العربيّ في إسرائيل لا يتوانى عن استخدام الوسائل المتاحة له لكسر جدار الحصار والاغتراب الذي زُجَّ به داخله منذ عام 1948. يحاول المواطنون العرب في إسرائيل اختراق الجدار الثقافيّ في محاولة للدخول إلى حيّز ثقافيّ بديل يعبّر عن هُويّتهم وعالمهم الداخليّ والثقافيّ في ظلّ إقصائهم عن جدول الأعمال الإسرائيليّ. إنّهم يفعلون ذلك من خلال تطوير العلاقات الثقافيّة الفنيّة والصحفيّة، إذ يعمل أكاديميّون عرب كزملاء في مختلف مراكز الأبحاث في العالم العربيّ، وكثير من الصحفيّين يكتبون، بانتظام، أعمدة في الصحف الهامّة والمرموقة التي تصدر في الدول العربيّة. في العامين الماضيين، شارك العديد من الشباب في العديد من البرامج التلفزيونية التي تُبَثّ بالأساس من بيروت. إنّ محاولات المثقّفين والفنّانين العرب داخل إسرائيل أن يتواصلوا مع العالم العربيّ هي دلالة إضافيّة للتداخل الحاصل بين المجتمع العربيّ والمحيط العربيّ، إلّا أنّها كذلك دلالة سعيٍ دؤوب من جانب المجتمع العربيّ لاختراق جدار العزلة والاغتراب والخروج إلى الحيّز العربيّ الرحب.

التغيُّرات السياسيّة والثقافيّة في المنطقة العربيّة أثّرت، ولا تزال تؤثّر، في المزاج والمواقف والتصوّرات والوعي والسلوك السياسيّ لدى المواطنين العرب في إسرائيل؛ إذ إنّهم يتأثّرون ويستجيبون للتغيّرات والتحوّلات في الحيّز العربيّ ويترجمونها إلى نشاط سياسيّ. وفي الواقع، كان بالإمكان كذلك توظيف المحيط العربيّ لإحداث تغييرات في الواقع العربيّ داخل إسرائيل، كما كان الأمر في حالة العرب الدروز.

جاء مشروع التواصل، الذي أطلقه الدكتور والمفكّر عزمي بشارة في مطلع الألفيّة الثالثة، ليشكّل محاولة نوعيّة لاختراق دائرة العزلة السياسيّة التي فرضتها إسرائيل على الدروز على مدى العقود الماضية؛ إذ كانت صلة الدروز بإخوانهم في سوريا ولبنان قد انقطعت منذ نكبة عام 1948. وإن كانت هناك بعض العلاقة

منذ الغزو الإسرائيليّ للبنان في حزيران عام 1982، فقد اقتصرت بالأساس على الجوانب الاجتماعيّ والعائليّ والدينيّ مع تحييد (إلى حدّ التحريم) للتعاطي مع الشأن السياسيّ. وكانت قيادة الدروز الدينيّة الرسميّة في إسرائيل قد سيّست الدين لتطويع أبناء هذه الطائفة للسياسات الإسرائيليّة، وحرّمت باسم الدين التعاطيَ بالسياسة. وكان الجديد في مشروع التواصل هو المحاولة الخلّاقة لكسر جدار العُزلة، من خلال تحقيق حالة من التواصل السياسيّ مع الموحّدين الدروز في سوريا ولبنان الذين طالما عُرفوا بتوجّهاتهم القوميّة والعروبيّة. لكن الأهمّ من ذلك أنّه للمرّة الأولى انخرطت فئة كبيرة من رجال الدين الدروز في مشروع التواصل تحت سقف معارضة التجنيد الإجباريّ وإعادة الدروز إلى دائرة انتمائهم العروبيّ، الانتماء الذي طالما حاولت إسرائيل إلغاءه بدءًا من تطويع الزعامات، ومرورًا بالتجنيد، وانتهاءً ببرامج التعليم الانعزاليّ المُستعدِية على المحيط. فالحضور الملموس لرجال الدين في مشروع التواصل خلق ثغرة في هيمنة القيادة الدينيّة الرسميّة التي كانت على الدوام متناغمة مع إملاءات السلطة التي كانت على الدوام تصوّر ولاءها للسلطة باعتباره نأيًا بالنفس عن التعاطي بالسياسة، وخدمةً لمصلحة الجماعة الأهليّة، وتجسيدًا لموقف أهل الدين. فجاء مشروع التواصل ليُظهر أنّه لا إجماع بين أهل الدين على موقف الموالاة العمياء، وأنّ مكوّنًا لا بأس به منهم على استعداد لتبنّي مواقف مغايرة لتلك التي تُمْليها السلطة. كذلك خشيت القيادة الدينيّة الرسميّة –على ما يبدو– ظهور قيادة بديلة تحت سقف مشروع وطنيّ، ولا سيّما أنّ لجنة التواصل لم تخفِ امتعاضها من بقاء الدروز "قبيلة رهن إشارة زعيم القبيلة".[34] أسهمت العلاقات الودّيّة التي سادت في تلك المرحلة، بين الزعيم الدرزيّ اللبنانيّ وليد جنبلاط والنظام البعثيّ في سوريا، في دعم مشروع التواصل، حيث عُقد في العام 2001، في العاصمة الأردنيّة عمّان، مؤتمر شاركت فيه شخصيّات وقوى درزيّة من لبنان محسوبة على الخطّ العروبيّ برعاية جنبلاط، كما اشتركت وفود درزيّة من الجليل والكرمل، وخرج المؤتمر بقرارات وطنيّة لم تقتصر على رفض مشروع الخدمة الإجباريّة المفروض على الدروز، بل شجبت كذلك ظاهرة التطوّع في الجيش الإسرائيليّ من عرب غير دروز.[35]

ولّد مشروع التواصل ديناميكيّة جديدة لتنظيم حركة احتجاج لدى الدروز، كان أبرز معالمها ظهور تنظيمات احتجاجيّة أكّدت على انتماء الدروز القوميّ العروبيّ، وحاولت الكشف عن مَواطن الغبن اللاحقة بالدروز على الرغم من خدمتهم في الجيش والأجهزة الأمنيّة. أوّل هذه التنظيمات كان "ميثاق المعروفيّين الأحرار"، الذي كان مرتبطًا عضويًا بالتجمّع الوطنيّ الديمقراطيّ ومشروع التواصل.

(34). بيان صادر عن لجنة التواصل الدرزيّة، تشرين الأوّل 2005. محفوظ لدى المؤلّف.
(35). **الوسط**، 514، 3 كانون الأوّل 2001، ص 26.

ب. 3: "الربيع العربيّ"

أكّد "الربيع العربيّ" مجدَّدًا جدليّة التأثّر بالمحيط، وهو ما انعكس جليًّا في استعارِ الانقسام السياسيّ والفكريّ في المجتمع العربيّ، على مستوى المثقّفين والأحزاب والمجال العموميّ، بشأن "الربيع العربيّ"، وعلى وجه التحديد بشأن الحرب التي تدور رحاها في سوريا. على الرغم من أنّه ليس لهذا الخطاب أيّ تأثير في ما يحدث في المنطقة العربيّة، يعبّر وجودُه عن حقيقة الانسجام، ولكن الأهمّ من ذلك هو أنّه يجسّد التذويت العميق لدى الأقلّيّة العربيّة لكونها جزءًا لا يتجزّأ من هذا الحيّز.[36]

أحدَثَ "الربيع العربيّ" في بداياته ومراحله الأولى حماسة منقطعة النظير في المجتمع العربيّ، وذلك على الرغم من غياب القضيّة الفلسطينيّة والصراع ضدّ إسرائيل عن أَجِنْداته. كانت هذه حماسةً مردُّها إلى الآمال التي عُلّقت عليه أنّه فاتحة للدمَقْرَطة والليبراليّة في العالم العربيّ، بما يحمله ذلك من سحب للبساط من تحت أقدام الخطاب الديمقراطيّ – الاستعلائيّ الإسرائيليّ، وتعزيز للخطاب المتحدّي للصهيونيّة، من خلال إسقاط حالة المقارنة بين وضع المواطنين العرب داخل إسرائيل والوضع المُزري للإنسان العربيّ في المحيط العربيّ القريب.

مع توسّع رقعة الحالة الثوريّة العربيّة وانتقالها بدايةً إلى ليبيا، ومن ثَمّ إلى اليمن وسوريا، بدأت الآمال تتقوّض نظرًا للتدخّل الأجنبيّ، ولعسكرة الاحتجاجات السلميّة وتحوّل بعضها إلى حالات "هوبسيانيّة" (حروب أهليّة) ما زالت قائمة حتّى يومنا هذا. وقد اعتبر أمل جمّال أنّ الحالة الثوريّة في العالم العربيّ ألهمت الأقلّيّة العربيّة الفلسطينيّة، وأثّرت في وعيها ومواقفها وسلوكها السياسيّ.[37]

من الواضح أنّ هنالك تبايُنات في مواقف الأحزاب السياسيّة، وقراءات مختلفة للحالة الثوريّة في العالم العربيّ. ففي حين تبنّت الجبهة الديمقراطيّة للسلام والمساواة موقفًا متماهيًا مع نظام البعث في سوريا، اصطفّت كلّ من الحركة الإسلاميّة والتجمّع الوطنيّ الديمقراطيّ إلى جانب الثورة. جاءت المواقف المتباينة تجاه "الربيع العربيّ" جليّة للعِيان بين أوساط المثقّفين العرب الفلسطينيّين في إسرائيل، في أعقاب النقاشات والسجالات السياسيّة والفكريّة الدائرة في ما بينهم بغية الإحاطة بالجانب المتعلّق بالخطاب السياسيّ والفكريّ الذي رافق التطوّرات في العالم العربيّ. علاوة على ذلك، محاولة سَبْر أغوار التحوّلات التي رافقت "الربيع العربيّ" على مستوى السلوك السياسيّ تكشف عن أنماط فعّاليّات وسلوكيّات سياسيّة على المستويَيْن المحلّيّ والقُطْريّ، وتؤكّد تغليب الخطاب المدنيّ على ذلك القوميّ، في حالة ارتداد واضحة إلى حالة التفكّك والانهيار التي سادت

(36). جمّال، 2017. ص 120–123.
(37). جمّال، 2017.

المحيط العربيّ، وتأتي تعبيرًا واضحًا عن حالة الشعور باليأس والإحباط من هذا المحيط. المقصود أنّ تراجع الخطاب القوميّ في المحيط العربيّ وصعود خطاب المواطَنة ارتدّا على الواقع العربيّ داخل إسرائيل، الذي وَجد أنّ خير سبيل، في ظلّ حالة التفكّك وخيبة الأمل من "العمق الثقافيّ والتاريخيّ" الذي يجسّده المحيط العربيّ، هو اللجوء إلى الخطاب المدنيّ ومحاولة تحدّي يهوديّة الدولة من خلال المواطَنة المتساوية الكاملة. يبقى أنّ حالة "تَمْدين" الخطاب العموميّ في الشارع العربيّ وحصره في السياقات المحلّيّة هي دلالة حيّة متكرّرة على مدى تأثُّر المجتمع العربيّ داخل إسرائيل بمحيطه الذي طالما رأى فيه عمقًا ثقافيًا ووجوديًا. فعندما انتكس هذا المحيط، جاءت ردّة المجتمع العربيّ من خلال إفرازٍ متماهٍ مع المحيط، في خطابه وسلوكيّاته تجاه الدولة.

التوصيات

1. تُظهر هذه الدراسة أنّ المحيط العربيّ حاضر بقوّة في وعي المواطن العربيّ في كلّ ما يتعلّق بسلوكيّاته وتحديد مواقفه تجاه الدولة.
2. يبدو، من التحليل التاريخيّ، مدى تأثير المحيط على وعي ووجدان المواطن العربيّ داخل إسرائيل، وأنّ هنالك ما يكفي من الأسباب لكي تعمل المؤسّسات العربيّة ذات الصفة التمثيليّة على إنشاء مؤسّسة تكون مَهمّتها تطوير وتنمية العلاقات مع المحيط العربيّ. المقصود أنّه آن الأوان لإقامة جهة رسميّة متمرّسة، أكاديميًا وسياسيًا ودبلوماسيًا، تعمل بصورة منهجيّة على تطوير العلاقات الثقافيّة والاقتصاديّة بين المجتمع العربيّ والمحيط العربيّ بما يخدم مصالح المواطن العربيّ في البلاد.
3. آن الأوان لإنشاء مؤسّسة تُعنى بمتابعة قضايا الطلبة العرب في الجامعات الأردنيّة، بغية تخفيف عبء المصاريف وتنظيم السفريّات وما إلى ذلك من الأمور اللوجستيّة.
4. ثمّة حاجة إلى تعميق الوعي لدى الجهات الرسميّة في الدول العربيّة بشأن حاجة المجتمع العربيّ إلى الانفتاح والتواصل مع المحيط، ومَوْضعة ذلك خارج سياق التطبيع. ينبغي إطلاق حملة إعلاميّة ودبلوماسيّة منظَّمة من قِبل القيادات السياسيّة للترويج لفنّانينا ومثّقفينا في العالم العربيّ الكبير.
5. ثمّة حاجة حقيقيّة إلى إنشاء مجموعة بحثيّة تعيد قراءة علاقة المجتمع العربيّ بمحيطه، وتعمل على وضع خطّة عمل لاستيعاب الأكاديميّين العرب في الجامعات العربيّة.
6. توظيف علاقات الدول العربيّة التي تقيم علاقات دبلوماسيّة مع إسرائيل

كعامل ضغط على الحكومة الإسرائيليّة لتعديل سياساتها تجاه المجتمع العربيّ في إسرائيل.

7. البحث عن سُبُل لتعميق التواصل الاجتماعيّ بين المجتمع العربيّ والمنطقة العربيّة.
8. آن الأوان لتشكيل هيئة سياسيّة دائمة، منبثقة عن لجنة المتابعة وأعضاء الكنيست ممثّلي الأحزاب العربيّة وفعّاليّات إعلاميّة واجتماعيّة، تُعنى بعَقد لقاءات دوريّة منتظمة مع سفارات ومكاتب تمثيل الدول العربيّة في إسرائيل في سبيل إطْلاعها بصورة منتظمة على هموم المواطن العربيّ في إسرائيل.
9. العمل على تشكيل هيئة تعمل على جمع التبرّعات من الدول العربيّة الخليجيّة على وجه التحديد، لدعم المشاريع التربويّة والاجتماعيّة والثقافيّة في المجتمع العربيّ.
10. بحث إمكانيّة تأسيس محطّة تلفزيونيّة عربيّة - داخليّة تبثّ للعالم العربيّ، ابتغاء زيادة الوعي بشأن أوضاع المواطنين العرب داخل إسرائيل.

الخلاصة

حتّى السنوات الأخيرة، كانت الأقلّيّة العربيّة في إسرائيل غائبة تمامًا عن اهتمام المحيط العربيّ، على الرغم من أنّ المحيط العربيّ كان حاضرًا بقوّة في صياغة الوعي السياسيّ والتوجّهات الفكريّة والأيديولوجيّة التي مرّت على المجتمع العربيّ منذ سبعين عامًا. وخلال فترة الصراع العربيّ - الإسرائيليّ حتّى سنوات الثمانين، لم تحاول الدول العربيّة توظيفَ الأقلّيّة العربيّة لصالحها، أو اعتبارَها ورقة رابحة في الصراع. على الرغم من ذلك، يمكن القول –بمقدار غير بعيد عن الدقّة– إنّ المجتمع العربيّ في إسرائيل كان يعتبر نفسه جزءًا من المحيط العربيّ بكلّ المفاهيم، وينظر إلى وجوده على أنّه امتداد اجتماعيّ ووجدانيّ وثقافيٌّ للمحيط العربيّ. هذه الحالة التواصليّة، على صعيد الوعي والوجدان، ألقت بظلالها على علاقة وموقف المواطن العربيّ من الدولة، ولطالما امتدّت الأنظار إلى المحيط العربيّ على أنّه مصدر استقواء معنويّ واستيحاء فكريّ؛ فكلّ التحوّلات الفكريّة والأيديولوجيّة التي شهدها العالم العربيّ انعكست على الحالة العربيّة داخل إسرائيل بدءًا بالقوميّة العربيّة، مرورًا بالتأطّر من جديد في الوطنيّات القُطْريّة، وانتهاءً بالمدّ الإسلامويّ واللجوء إلى أُطُرِ ما قبل الدولة على خلفيّة منطق التفكّك الذي جاء به "الربيع العربيّ". وإذا كانت هنالك نخب سياسيّة رأت في أوسلو وامتداد حالات تطبيع على الصعيد الرسميّ حصارًا لها، فإنّ المجتمع العربيّ –بنخبته السياسيّة وفعّاليّاته الثقافيّة والفنّيّة والإعلاميّة– رأى في حالة التطبيع متنفَّسًا وفرصة للتملّص من

حالة الحصار المفروضة على المجتمع العربيّ. ممّا لا شكّ فيه أنّه كانت لثورات "الربيع العربيّ" إسقاطات معنويّة سلبيّة على المزاج العامّ لدى المجتمع العربيّ، إلّا أنّها في الوقت ذاته عزّزت لديه القناعات بضرورة تطوير خطاب سياسيّ جديد لا يُغفل الانتماء القوميّ، بل يُمَوْضِع الحقوق المدنيّة الجماعيّة في صُلب هذا الخطاب. يبقى أن نشير إلى أنّ علاقة المجتمع العربيّ بالدولة وقراءته لحالته كانتا على الدوام متداخلتين مع الحاصل العامّ في المحيط العربيّ، وهذا أمر لا يمكن إغفاله، بل بات عاملًا مؤثّرًا في سلوكيّات المجتمع العربيّ في السنوات الأخيرة.